أنت صغير

بقلم: محمود الحسيني المرسي

اغرورت القرية تئن وتتوجع كالهرة الكسيرة .. يلفها ظلام بهيم .. يشيع منها الخوف والرهبة ويخيم عليها سكون عميق يحاول الصمادع ان تبدده بنقيقها الصداح .. وهي تربض باطراف الحدائق المحيطة بالقرية .. وبين الحين والحين يعلو نباح كلب أو كلبين اذا ما انتشب قدما غريبة .. في هذا الظلام .. وفي ذاك السكون .. جلس « عم شحاته » .. الذي بدا المشيب يخط في رأسه .. وبدأت التجاعيد تحفر على وجهه .. جلس على المصطبة « امام الدار .. وقد ارتدى جلبابه الصوفي الوحيد .. يتحسر عند صدره عن شعر غزير .. وطاقيته البيضاء اللون تكاد تغطي اذنيه .. يتهادى الى سمعه فحيح اشجار الكافور .. وهدير القناة التي تصب ماءها في قناة اصغر منها .. ونسمات كليلة تهب عليه فتلفح وجهه المكدود .. وتعيده الى ماضيه ... جلس شاردا يراقب الأطفال وهم يلعبون ويشدون اناشيد رمضان .. حاملين فوانيسهم الملونة يملأون القرية صخبا وصياحا .. فرحين مهللين في انتظار « أبي طبلة » .. طلوا هكذا تحت الفانوس المعلق في أول الحارة تعبث به النسمات وترسل شعاعه الواهن الضئيل المتراقص خلال زجاجه المهشم يحاول تبديد الظلام دون جدوى .. فينعكس ضوؤه المتناثر على جلاليب الاطفال فيبدون كالاشباح المتحركة فينهمك معهم بفكره وذهنه .. ويستعيد حياته .. في مثل هذه الليالي .. ليالي رمضان منذ حوالي خمسين عاما مضت .. كان مثلهم يلعب كما يلعبون .. يحوم معهم حارات القرية ينشد كما ينشدون .. كان فانوسه أكبر فانوس في « الشلة » .. بل كان هو رحيم « الشلة » ينشد وهم يرددون خلفه .. وكان هو الآمر الناهي .. لا يرد أمره .. ولا يخالف رأيه .. اذا جلس جلسوا .. واذا مشى مشوا خلفه .. حتى اذا جاء « عم عبده » المسحراتي تزايد صخبهم وعلا صوتهم .. فرحين بلقائه .. وساروا خلفه يرددون الدعاء التقليدي « بعوده وأنتم طيبين ... أحياكم الله الى كل عام » .. وتنشه عم شحاته « في ذكرياته على صوته الذي خرج عن وقاره .. وهو يردد في سخرية .. « احياكم الله الى كل عام » ثم تنعس يحتقد ذهنه على تلك الايام التي لا تستقر على حال .. كناقية لا تكف عن الدوران .. ثم شرع ينظره يرنو نحو الأطفال الذين علا صخبهم وتزايد لغطهم

لاقتراب ميعاد « أبي طبلة » والى ابنه « صلاح » الذي يرد صوته عن باقي « الشلة » وهم يرددون « رمضان تحت التل بيزرع حل محدش شافه » .. « رمضان تحت الكوم بيزرع نوم محدش شافه » ... ثم ما لبث عم شحاته « أن حدثته الذكريات .. الى حيث كان يلعب كما يلعبون .. وينشد كما ينشدون .. الى عهد الطفولة الذي ولى ماسوفا عليه .. كان يسير خلف ابي طبلة الذي يقف امام كل دار .. ويصيح باسم عائل الاسرة .. حتى اذا وصل الى دارهم صاح « عم عبده » المسحراتي بأعلى صوته « عم ابراهيم يوحد الله » .. فكان شحاته يلح عليه ان يذكر اسمه هو أيضا .. ولم لا ؟ اليس هو رعيم « الشلة » ... انه اكبر افراد « الشلة » جميعا .. انه ليس صغيرا .. ولكن « عم عبده » كان في كل مرة يبهره قائلا « انت لسه صغير يا شحاته .. السنة الجاية وعليك حير » .. فكان بذلك يثير سخرية الاطفال فيتمنى عندئذ لو كان رجلا حقا ليصفعه على وجهه ...

وظل الحال هكذا .. يوما بعد يوم يلح على عم عبده أن يذكر اسمه .. وعم عبده مصر على الرفض بحجة أنه ما زال صغيرا .. وبعد أن ياخذ « أبو طبلة » سبيله لباقي بيوتات القرية .. يدخل شحاته « البيت مكس الراس .. محطم الفؤاد .. تتزايد ضربات قلبه .. وكأنها تقول .. أنت صغير .. أنت صغير .. انت صغير وكان شحاته يشكو اباه ذلك .. ولكن اباه يقول له أيضا .. « انت لسه صغير يا شحاته » .. فيزداد غيظا وحنقا .. ويقسم بينما بالله أنه لن يتناول سحورا الليلة ..

ومرت الايام تلو الايام .. وهو يعيش على أمل يحقق بين جوانحه .. أمل صبياني انه يريد أن يشعر بلذة النصر أمام أقرانه وعم عبده يصيح بأعلى صوته ..

ـ عم شحاته يوحد الله ..

وانقضى العام .. وأتى العام التالي .. « وأبو طبلة » مصر على انه مازال صغيرا .. فكان شحاته لا يتمالك نفسه وهو يصرخ في وجهه بأنه أكبر منه .. فيقطب « عم عبده » حاجبيه .. ويصيح في وجهه غاضبا :

ـ اشمعنى انت اللي عامل شلول قوى .. يعني فالح يا أخي .. معدش كمان اللي الصغار « ويهوى على الطبلة بعدة طرقات ثم يمضي سبيله بين البيوت المتناثرة في أنحاء القرية .. يوقظ الفلاحين .. وكان في بعض الاحيان يذهب شحاته « الى امه ويناشدها الحقيقة .. أهو صغير حقا ؟ ولكن الام كانت تبتسم له في سذاجة وهي تقول

ـ لا يا ابني انت ما شاء الله راجل .

فيصحب شحاته من أبي طبلة المحزون ومن أبيه ... ومن أصحابه الصغار .

ثم استطرد شحاته متأملا ..

وفي احدى الليالي ... بعد مضي حوالي سبعين اسبوعا في جوف القرية صوت مكتوم معلنا نبأ موت الشيخ ابراهيم « ... والده .. وكان ذلك قبل رمضان بحوالي شهرين وجاء رمضان يسابق الايام ... واجتمع

الاطفال في أول ليلة من لياليه ... ترحيب مهللين - في انتظار أبي طبلة .. وشحاته معهم فرحا مهللا .. فلقد تناسى موت أبيه .. بل كان يحمل فانوسه الملون ويترعمهم كالعادة .. وحناء أبو طبلة .. تدوى طرقاته من بعيد وتقول في عناد واصرار .. أنت صغير .. أنت صغير .. أنت صغير .. وحلق حلقه الاطفال يرددون الدعاء التقليدى ، بعوده وأنتم طيبين - أحياكم الله الى كل عام ، .. أما شحاته فقد تجهم وجهه ... وتقلصت عضلاته ... وتطاحنت دقات قلبه .. ثم يطلب من الله في نفسه أن يكون رجلا في هذه المرة ..

ووصل ، أبو طبله ، الدار .. وقف منتوها مبهوتا .. فلقد سمع لأول مرة في حياته اسمه يتردى في ردهة أذنيه حتى ليكاد يصمها ..

ـ عم شحاته يوحد الله ...

دهش الأطفال .. ولم يصدقوا آذانهم .. وراحوا يتهامسون .. عم شحاته ؟ كيف ذلك ؟ .. لقد كان في السنة الماضية صغيرا .. اصبح عم شحاته مرة واحدة ... وكانت هذه الليلة أسعد ليلة في حياة شحاته .. وفي تلك اللحظة .. دوت طرقات أبي طبلة .. وقد ازداد صياح الاطفال وهم يهرعون اليه فرحين بلقائه ..

وانتشلت طرقات الطبلة .. ، عم شحاته ، .. من ذكرياته فتنهد تنهيدة .. وتململ في مكانه جزعا .. انه نفس عم عبده المسحراتي .. ونفس صوته الأجش ونفس الطبلة .. ونفس الطرقات الكريهة التي ما زالت تقول في عناد واصرار .. انت صغير .. انت صغير .. انت صغير .. وانتفض .. عم شحاته .. يتأهب للدخول وهو يتمتم بشفتيه بعد أن سمع ، عم عبده ، المسحراتي يرفع عقيرته صائحا ...

ـ عم شحاته يوحد الله ...

ثم اعقبها بعدة طرقات .. وكانها على أم رأسه .. ثم مضى سبيله .. وحلقه الاطفال يرددون .. ، بعوده وأنتم طيبين ... أحياكم الله الى كل عام ، وتخلف عنهم ابنه ، صلاح ، ودلف الى البيت خلف أبيه .. لتناول السحور ... حاملا فانوسه الملون الكبير .. يطيح به في الهواء ..

وحول الطبلة ، اجتمعت الأسرة تتناول السحور .. وفي غمرة انهماكهم في تناول الطعام ... صاح صلاح ..

ـ الى فوق يا بابا .. هوه عم عبده مبيديش على اسمى ليه ؟ .

ولكن الأب ظلا صامتا ...